الفقراء المخربون

والشيخ علي الحريري الحوراني

يصعب جدًا تعيين الزمن الذي أطلق فيه لقب المخرّبين على الفقراء الذين عرفوا بالاستهانة بالشرائع والآداب واستباحة المحارم والمآثم ولذلك حار في تفسيره طابع كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي (ص ٢٢٥) ولم يدر له توجيهاً وقد اشتهر الشيخ خضر الكردي شيخ الملك بيبرس البندقداري بارتكاب ضروب المنكرات واقتراف انواع المخازي ومع ذلك لم ينعته احد بالتخريب فهل كان الشيخ علي الحريري اول من عُرف به ونسب اليه وقد حاول بعضهم الاعتذار عن هؤلاء الاباحيين والمجاذيب وزعم ان التخريب الظاهر منهم لم يكن الا مغالطة وتسترًا وهو ما نقله ابن تغري بردي في كلامه على سليمان ابن المولّه المجذوب وروى قول الذهبي عنه « انه كان يأكل في شهر رمضان ولا يصوم ولا يُصلي نال اليافعي : « ومثل هذا قد شوهد كثيرًا من المخربين يصلون في اوقات لا يُشاهَدون فيها وان الاكل لا يدخل الى بطونهم وما يرى الناس انهم يأكلون ليس كذلك بل يمضغونه تخريباً وتسترًا وغير ذلك من الاحوال المحتملة لنقل الصلاة في وقتها فللقوم في ذلك احوال يحتجون فيها»[1]

فهل كان اليافعي يعتقد ان هذا التخريب الظاهر كان تمويهاً وسترًا لما كان لهم في الباطن من الخوارق والمعجزات.

واكثر ما ورد لفظ التخريب في اشارتهم الى صحبة الفقراء للغلمان الاحداث قال شهاب الدين الدلجي يعني الشيخ علياً الحريري : « كان يعاشر الاحداث ويعتمد ما يسمونه تخريباً »[2] وزاد الفوطي في التصريح والشكوى وقال : « كان يعاشر الصبيان الاحداث بل يدخل معهم الحمام ويعتمدما يسميه الفقراء.

---

١) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٣ : ١٢٤

٢) الفلاكة والمفلوكون ٧٢ – ٧٣

تخريباً والفقراء ينكرون فعله »[1]. ومن هاتين الشهادتين يستدل على ان التخريب هو من وضع الفقراء انفسهم وكانوا يعنون به اولاً مناقضة السنن والعادات المألوفة ثم تناول عندهم كل خروج عن الآداب والشرائع.

وقد اشار غير واحد من المؤرخين الى نشأة الشيخ علي الحريري وقالوا انه علي ابن الحسن بن المنصور ولد في قرية بسر من حوران شرقي اذرع من عشيرة يقال لهم بنو الزمان وقدم دمشق صبياً وتعلم فيها صنعة الحريري والعتابي ولذلك عُرف بالحريري ولم ينص احد على سنة ميلاده واقتصروا على ذكر وفاته سنة ١٢٤٨/٦٤٥ وفي قول القوطي ان السنة كانت ٦٤٦ ولكن يستفاد من قول الذهبي في العبر انه توفي وقد نيف على التسعين فتكون من ثم ولادته حول سنة ٥٥٥ / ١١٦٠

وما عتم ان ترك صناعة الحرير وآثر عليها حرفة الفقراء. وصحب الشيخ ابا علي المغربل خادم الشيخ ارسلان في ظاهر الباب الشرقي وزاد عليه في الإغراب والحزقة « فكان يلبس الطويل والقصير والمدوّر والمفرّج والابيض والاسود والعلمة والمئزر وثوب المرأة والمطرّز والملوّن »[2] وقد اشار ابن كثير الى هذه الطريقة السخيفة الشنيعة فقال في وفاة الشيخ عبدالله الملطي سنة ٦٧٦/١٢٧٧ « له اشياء كثيرة من الطراريح والآلات الفقرية ويلبس على الطريقة الحريرية وشكله مزعج »[3]

ثم ادعى الحريري بعد ذلك المشيخة وابتنى له زاوية على الشرف القبلي وسكن العليرة المشهورة بالقرمانية من مقابر الصوفية على نهر باناس[4] وعظم امره وكثر اتباعه واقبل على الطيبات والراحة والسماعات وجذب اليه الغلمان الحسان « فكان من وقع نظره عليه من الاحداث واولاد الاجناد والامراء وغيرهم يحسن ظنه فيه ويميل اليه ولا يعود ينتفع به اهله بل يلازمه ويقيم عنده اعتقاداً فيه وميلاً اليه »[5]

١) الحوادث الجامعة ٣٣٥
٢) الفلاكة والمفلوكون ٧٢ — ٧٣
٣) البداية والنهاية ١٣ : ٢١٢
٤) الدر الملتقط الخزانة الخالدية بالقدس ٢١ ص ١٠٩
٥) الحوادث الجامعة للقوطي ٣٣٥

ومما زاد افتتان الخلق به انه كان يقول لمن يريد ان يتتلمذ له : لا تمنع النفس شيئاً من حظها فهما طلبت نفسك فهو حقها فأبلغها ذلك »[1] فلا غرو اذا اشتد الاقبال عليه وكان له شهرة ومحبة عظيمة عند الاحداث وقد اشار بعضهم الى هؤلاء الغلمان الحريرية فقال متغزلاً :

حريري قلكني بطرف كحيل ناعس فتح غرير
باذ لي التيتك في هواه كذاك عهدت غلمان الحريري[2]

ولما تفاقم البلاء به وازدادت فضائحه وقبائحه نما امره الى السلطان الملك الاشرف فامر بالقبض عليه سنة ٦٢٨ واعتقاله في قلعة عزتا[3] في جوار الفيجة واقام بالحبس ست سنين وسبعة اشهر ورفع وهو بالحبس قصة اي عريضة الى السلطان وصف فيها نفسه بكل جرأة وقحة فقال :

فقير ولكن من صلاح ومن تقى وشيخ ولكن في الفسوق امام[4]

وبقي في الاعتقال الى ان مات السلطان الاشرف فاطلقه الصالح اسمعيل واشترط عليه ان لا يقيم بدمشق فلزم بلده بصر حتى كانت وفاته فجأة في قول الذهبي[5] او قتلاً في رواية الدر الملتقط .

وقد اختلفت الاراء في الحكم عليه وغرَّ بـه صاحب شذرات الذهب فذهب الى انه احد من لا يقطع له بجنة ولا نار[6] وعرفه ابن ابي شامة مواطنه ووقف على حقيقة باطن اشياعه ومريديه فقال : « هم اصحاب الزي المنافي للشريعة وباطنهم شر من ظاهرهم الا من رجع الى الله منهم وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بامور الشريعة والتهاون بها من اظهار شعار اهل الفسوق والعصيان شيء كثير وانفسد بسببه جماعة كثيرة من اولاد كبراء دمشق وصاروا على زي اصحابه وتبعوه بسبب انه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم

---

١) المختار في كشف الاسرار للجوبري ٢٠

٢) الدر الملتقط ١٠٩

٣) المختار في كشف الاسرار للجوبري وفي الاصل المطبوع « حصن عرقا » وهو غلط وتحريف .

٤) الفلاكة والمفلوكون ٧٢-٧٣

٥و٦) شذرات الذهب في اخبار من ذهب للعماد الحنبلي ٥ : ٢٢١

والرقص والمردان وترك الاحتجار على احد فيما يفعله وترك الصلوات وكثرة النفقات فأضلّ خلقاً كثيراً وافسد جمعاً غفيراً وقد افتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ثم اراح الله منه »[1]

واقر ابن شاكر الكتبي انه كان من افتن شيء واضرّه على الاسلام قال « ولما مات سنّ اصحابه المحيا في شهر رمضان كل ليلة سبع وعشرين وهي من ليالي القدر فيحيون تلك الليلة الشريفة بالدفوف والشبابات والملاح والرقص الى السحر »[2]

ونشأ له تلامذة واتباع مشوا على منهاجه في التخريب الديني والادبي وتجاوزوهما بارشاده الى التخريب المادي فكانوا يهدمون كل ما تناولته ايديهم من معابد النصارى ونصّ ابن شاكر على ان خراب كنيسة المصلبة اي كنيسة حنانيا بدمشق سنة ٥٨٠/١١٨٤ وتحويلها الى مسجد قام به رجل حريري في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب[3] ولم يدرك المستشرق سوفير في ما نقله من عيون التواريخ الى الفرنسية معنى لقب الحريري فترجمه :

marchand de soie بدلاً من partisan de la secte Haririeh

---

١) ذيل الروضتين لابي شامة المطبوع سنة ١٩٦٧ بعنوان « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ص ١٨٠

٢) فوات الوفيات ٢ : ٤٢-٤٣

٣) عيون التواريخ ١٥٨٧ خزانة باريس ٩٤